الشعر العربي الهندي في مراحله المختلفة

الأستاذ عرفات ظفر
(باحث ، مركز الدراسات العربية والإفريقية ـ جامعة جواهر لال نهرو - نيودلهي)

لا ريب في أن اللغة العربية لغة ديانة المسلمين وذلك لأن كتابهم المقدس قد نزل فيها وذخائر الأحاديث النبوية كلها توجد في هذه اللغة المقدسة ، وبصرف النظر عن هذا كله تزخر هذه اللغة بالكنوز الثمينة الشاملة العلوم العربية والإسلامية ، ولهذا السبب مسلمو كافة الأقطار العالمية ينظرون إلى هذه اللغة بعين التقدير والاحترام ، وفي هذا الصدد لا استثناء لمسلمي الهند إذ أنهم أيضاً يحترمون ويقدسون اللغة العربية فلا يألون أي جهد في سبيل تنميتها وتطويرها ، ومن هنا نجد قائمة طويلة للعلماء الهنود الذين لهم إسهامات جليلة في إثراء اللغة العربية وآدابها ، فليس بخاف على كل من له أدنى إلمام بالدراسات العربية في البلدان غير العربية خدمات علماء الهند في توسيع نطاق اللغة العربية وفنونها وآدابها .

إثر نزوح المسلمين إلى شبه القارة الهندية بذل علماؤهم الأفاضل أقصى مساعيهم لبث بذور التعاليم الإسلامية في ربوع الهند ، وفي الوقت ذاته ركزوا عنايتهم على تعلم اللغة العربية ونشرها وتطويرها ، فسرعان ما أثمرت وأينعت مساعيهم هذه بحيث تمكن عدد كبير من الأدباء والشعراء الهنود من إنشاء القصائد وتأليف الكتب باللغة العربية .

ومع هذا كله فلا مناص لنا من الاعتراف بأن الشعر العربي

الهندي - مهما يكن مستواه - لا يرقى إلى درجة ما أنتجه العرب من القصائد والمنظومات والمقطوعات الشعرية ، والسبب وراء هذا الأمر هو أن الشعر العربي لما خرج من الصحاري والبوادي العربية فقد أسلوبه العربي الخالص وسذاجته الفطرية التي كانت من أهم وأبرز ميزاته ، ولم يستطع الشعراء المولدون أن يحافظوا على هذا الأسلوب القح ، وبالنتيجة اضمحلت براعة البيان وبساطة التعبير في أبياتهم العربية ، وذلك لكثرة الصنائع والبدائع ، وهذا من الأمور الطبعية لأن أحداً منا لا يستطيع أن يعرب عن مشاعره وأحاسيسه في لغة أجنبية بمجرد معرفة قواعدها النحوية والصرفية مثلما يستطيع أصحاب تلك اللغة ، وإلى هذه الحقيقة أشار العلامة ابن خلدون في مقدمته قائلاً : "كان الكثير ممن لقينا من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شئ لأنهما لم يجريا على أساليب العرب" (١) .

والمؤرخ الشهير العلامة شبلي النعماني أيضاً قد أشار إلى هذا النقص في تلك القصائد التي قرضها الشيخ غلام علي آزاد البلغرامي باللغة العربية ، والذي سنتحدث عنه عند ذكر الشيخ وشعره .

ومن الجدير بالملاحظة أن العلماء الهنود تعلموا اللغة العربية وأتقنوها وقرضوا فيها الأبيات والقصائد في حين كانت أسواق الشعر والأدب في البلاد العربية تمر بمرحلة الجمود والخمود ، فقد تأثر الشعر العربي في شبه القارة الهندية بهذا الكساد والانكماش ، وتتضح هذه الحقيقة من كلمات الدكتور زبيد أحمد التالية ؛ فهو يقول :

"إن الدراسات العربية لم تبدأ في الهند إلا بعد أن فقد الشعر

(١) مقدمة ابن خلدون : ص/٥٠٣ .

سموه وبهاءه حتى في البلاد الناطقة بالعربية ، ولهذا لا يتوقع من شعراء هذا القطر أن يكونوا على مستوى عال في الروح الشعرية وأحسنهم أولئك الذين يتقنون في الأناقة ويتلاعبون بالكلمات" (٢) .

هناك جانب آخر لهذا الأمر وهو أن معظم الشعراء الهنود كانوا من العلماء المتدينين وقد أتقنوا لغتهم العربية في المدارس الدينية الإسلامية ، فلم يكن قرض الشعر باللغة العربية شغلهم الشاغل وموضع اهتمام كبير لأنهم كانوا يعرفون جيداً بأن الإسلام بوجه عام لا يشجع اتباعه على نظم الأبيات ، ومن ثمة بعض العلماء والأئمة المتقدمين كانوا يرون أن الشعر لا يليق بمكانة العلماء وقد أشار إلى هذا الجانب الإمام الفقيه الشافعي عليه الرحمة في بيته التالي :

و لو لا الشعر بالعلماء يزري
لكنت اليوم أشعر من لبيد (٣)

وبالرغم من هذا كله نشاهد أن عدداً ملحوظاً من العلماء المسلمين الهنود اختاروا الشعر كأداة لإظهار ما كانت تتموج في قلوبهم ونفوسهم من العواطف والأفكار وخلفوا لنا منظومات رائعة باللغة العربية ، وتحتوي هذه الإنتاجات الشعرية بوجه عام على موضوعات الحمد والمديح والوعظ والحكمة والتهنئة والترحيب والرثاء والحماسة على منوال الشعراء المتقدمين وأساليبهم وذلك لأن نماذج الشعراء الأقدمين الموجودة في صورة المعلقات وحماسة أبي تمام والبحتري وديوان المتنبي وغيره كانت أمام أعينهم عند دراسة اللغة العربية وآدابها في

(٢) الأداب العربية في شبه القارة الهندية – للدكتور زبيد أحمد : ص/٢٣٦ .
(٣) مساهمة علماء دار العلوم بديوبند في الأدب العربي – للدكتور زبير أحمد الفاروقي : ص/٨٩ .

المدارس الدينية الإسلامية ، فكان من الطبيعي أن يسلكوا مسالك الشعراء القدامى عند قرض الأبيات في اللغة العربية ، وكانت نتيجة ذلك أنه ليس لهم أي نصيب يذكر في إثراء اللغة العربية وآدابها . وتخصيبها عن طريق إدخال الأفكار الهندية المحلية ، وتصوير المناظر الطبعية المتوافرة في الهند ، وذكر المراسيم والطقوس الهندية في أبياتهم وقصائدهم العربية ، واعتقد أنه بسبب فقدان العناصر الهندية في قصائدهم لم ينل الشعر العربي الهندي قبولاً واسعاً في البلدان العربية ، لأن العرب وجدوه مجرد نقل وتكرار الأفكار والموضوعات العربية القديمة .

وأياً كان الأمر فإن شبه القارة الهندية قد أنجبت في عهودها المختلفة أدباء كباراً وشعراء عظاماً نشأوا وترعرعوا في أريافها وأمصارها ، وفي السطور التالية نأتي بذكر بعض الشعراء العمالقة الهنود الذين سكبوا عواطفهم الجياشة في قالب النظم العربي وتتسم آثارهم الشعرية إلى حد ما بالأصالة والبصمات المحلية وتتبلور منها الأفكار الهندية والقضايا المعاصرة ، فبقيت لهذا السبب أسماؤهم في صفحات التاريخ ، ونجد آثارهم حتى الآن مبعثرة في كتب النقد والأدب والبلاغة ، ومن بين هؤلآء الشعراء أخص بالذكر **مسعود بن سعد بن سلمان اللاهوري** المتوفى ٥١٥هـ .

إنه أول من برع من الهنود في العلوم والآداب العربية ، واشتهر كأول شاعر عربي في الهند واختار قوالب اللغة العربية لإظهار أفكاره وأحاسيسه وهو إلى جانب اللغة العربية كان يجيد اللغتين الهندية والفارسية ، وقرض فيهما الأشعار ، فترك لنا دواوين شعره في هذا اللغات الثلاث ، ولكن مع الأسف الشديد نكتب هنا أن ديوانه العربي والهندي قد ذهبا أدراج الرياح و "طارت بهما

العنقاء" ؛ كما قال عنهما الشيخ آزاد البلغرامي في سبحة المرجان (٤)، ولتقدير مكانة هذا الشاعر الأدبية وتقييم محاسنه الشعرية يكفي لنا الإشارة إلى أن الأديب الشهير والناقد المعروف الشيخ رشيد الدين الوطواط قد استدل في كتابه : "حدائق السحر" بأبيات سلمان التي يدل مطلعها على براعة الاستهلال ، وهي كالآتي :

ثق بالحسام فعهده ميمـــــــــون
واركب و قل للنصر كن فيكون

وفي نفس الكتاب نجد أبيات سلمان التالية أيضاً وهي من أمثلة التورية :

و ليل كأن الشمس ضلّت ممرها
و ليس لها نحو المشارق مـــرجع
نظرت إليه و الظلام كأنــــــه
على العين غربــان من الجو وقع
فقلت لقلبي طال ليلي و ليس لي
من الهم منجاة و في الصبر مفزع
أرى ذنب السرحان في الجو طالعاً
فهل ممكن أن الغـزالة تطلع (٥)

ومما يبدو من الأبيات المذكورة أن الشيخ سلمان كان شاعراً مطبوعاً متضلعاً من اللغة العربية وقادراً علـى قـرض الأشـعار فيـها ، وكان له يـد طـولى في استخدام البدائـع والمحسـنات ، ويقـول الشيخ الوطواط في كتابه هذا "حدائق السحر" عن شاعرية الشيخ مسعود

(٤) سبحة المرجان : للسيد غلام علي آزاد البلغرامي : ج/١ ، ص/٦٧ .
(٥) المصدر السابق : ص/٦٩ .

سلمان :

"غالب أشعار مسعود كلام جامع ، لا سيما الأشعار التي أنشأها في حالة الحبس ، ولم يصل في هذه الطريقة أحد من شعراء العجم إلى غبار موكبه ، لا في حسن المعاني ، ولا في لطف الألفاظ" (٦) .

الشيخ حسن محمد الصغاني (ت/٦٥٠هـ) :

كان الإمام الصغاني أحد العلماء العباقرة الذين نشأوا وترعرعوا في ربوع الهند ، وحتى الآن تعتز وتفتخر شبه القارة الهندية بآثاره العلمية والأدبية ، ومع أنه نال شهرة كلغوي ضليع ومحدث جليل وفقيه كبير إلا أنه كان شاعراً قديراً ، وخير دليل على هذا القول أبياته التالية التي يقول في مطلعها :

أنساني الدهر أعطاني و أوطاني
و حطني و وهاد الخسف أوطاني
و كنت أفنيت عمري في رفاهية
فعضني و لذيذ العيش أنساني

وأنهى هذه القصيدة الطريفة قائلاً :

فقلت يا دهر سالمني مسالمة
فإنني عمري ثم صاغاني
فانصاع ينقاد إذعاناً و سالمني
و مدّ ضبعي و ناغاني و صاغاني
وذاك للصفح مني عن جنايته
و الصفح يجلي إن جنى جان (٧)

---

(٦) المصدر السابق : ص٦٧ . (٧) اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية - الباكستانية عبر القرون - للدكتور سيد رضوان علي الندوي : ص/١٦٤-١٦٥.

و إلى جانب هذه الأبيات الثقيلة له شعر مرسل رقيق ؛ و منه قوله :

يا راحم الطفل الرضيع المزعج يا
فاتح الباب المنيع المرتجي
إن كان غيري مبلساً مستيئساً
فأنا الفقير المستكين المرتجي
أنت الذي فيه شفاء السقم لا
قصب الذريني و لا دواء المرتجي (٨)

الأمير خسرو (ت/٧٢٥هـ) :

إن الشاعر الأديب الفنان الأمير خسرو الذي سماه الإيرانيون "طوطي الهند" كان مع نبوغه في الشعر الفارسي ، بارعاً في اللغة العربية فكان يقرض فيها القصائد والأبيات ، ولكنه من المؤسف جداً أنه نال شهرة كشاعر فارسي كبير وموجد بعض الألحان الموسيقية الهندية و واضع الأهاجي ، فهذه الخصائص كلها قد غطّت حياته إلى حد أن الأدباء والمؤرخين قد أهملوا إنتاجاته الشعرية باللغة العربية ، ومن الجدير بالملاحظة هنا أن الأمير خسرو لم يترك لنا أي ديوان يشتمل على قصائده العربية فمعظم أبياته العربية منشورة في كتابيه : "إعجاز خسروي" و "خزائن الفتوح" وفي بعض دواوينه الفارسية ، ففي الأماكن المختلفة لإعجاز خسروي نجد ٦٦٧ / شعراً عربياً له (٩) ، ومن العجيب أنه لم يقم أحد من الباحثين حتى الآن بجمع أشعاره العربية على حدة في صورة كتاب ، ومهما يكن من الأمر فإن الأمير

---

(٨) عربي أدب مين هندوستان كا حصه – للدكتور شمس تبريز خان : ص/١٣٩-١٤٠ .
(٩) المصدر السابق : ص/١٦٠ .

خسرو كان متضلعاً من اللغة العربية وآدابها وعلومها ، ويتصف شعره العربي برهافة الحس وعذوبة البيان وسلاسة الأسلوب ، والأبيات التالية خير دليل على هذه الميزات لشاعرية الأمير خسرو :

ذاب الفؤاد و سال من عيني الدم
و حكى الدوامع كل ما أنا اكتم
يا عاذل العشاق دعني باكياً
إن السكون على الحب محرم
من بات مثلي فهو يدري حالتي
طول الليالي كيف بات متيمٌ (١٠)

وله قصيدة في مدح السلطان علاء الدين الخلجي ، وهي نموذج عال لقريحته الشعرية ، فيقول فيها بعد التشبيب والنسيب .

في مهجتي سكنت محبتها كما
مدح المليك المستعان الأعظم
أعني علاء الدين سلطان الورى
ملك تولد من سلالة آدم
من جوده الفياض قد يحكي إذا
نعب الغراب على رميم الحاتم
رشح لمدحتك العلية خسروا
بالشعر ليس كمثله في العالم
كن بالخلود على الأرائك قاعداً
فأنا أخصك بالبقاء الدائم (١١)

---

(١٠) نزهة الخواطر – للسيد عبد الحي الحسني : ج/٢ . ص/٤٠ .

(١١) الآداب العربية في شبه القارة الهندية : ص/٢٣٩–٢٤٠ .

مثل هذه الأشعار تجعل الأمر صعباً على القارئ أن يقول هل هذا كان الأمير خسرو أكثر قدرة على العربية أم الفارسية ، ومن المحتم عليه لو أن الأمير خسرو نظم الأبيات باللغة العربية فكانت مكانته عالية بين جميع الشعراء الهنود الذين قرضوا الأبيات بلغة الضاد ، إلا أنه في معظم الأحوال اختار اللغة الفارسية كوسيلة للتعبير عن مشاعره وعواطفه فكانت اللغة العربية عنده بمثابة لغة ثانوية .

📖 **الشيخ نصير الدين محمود الدهلوي** (ت/٧٥٧هـ) :

بعد الأمير خسرو يأتي اسم الشيخ نصير الدين محمود المعروف بـ "جراغ دهلوي" في قائمة شعراء العربية الهنود ، كان الشيخ من أبرز تلامذة الصوفي الهندي العظيم ألا وهو سلطان المشايخ نظام الدين أولياء ، وتعلم الشيخ نصير الدين العلوم العربية على أيدي الأساتذة الكبار الموجودين حينذاك وتضلع في فترة قصيرة من اللغة العربية وآدابها حتى إنه أصبح قادراً على نظم القصائد باللغة العربية ، فمدح في هذه القصائد بعض الشيوخ والمتصوفين ، ومن اللافت للنظر أن أبياته العربية تتجرد من الأفكار البديعة لأنه في معظم أشعاره قد عالج الموضوعات الدينية فهذه الأشعار تجري على الأساليب القديمة التقليدية ، لقد اشتهر شعره التالي بوجه عام الذي يمدح فيه أستاذه شمس الدين يحيى الأودي (ت/٧٤٧هـ) قائلاً :

سألت العلـــم من أحياك حقاً
فقال العلم شمس الدين يحيى (١٢)

📖 **القاضي عبد المقتدر الدهلوي** (ت/٧٩١هـ) :

بعد رحيل الشيخ مسعود سلمان اللاهوري والأمير خسرو

---

(١٢) الآداب العربية في شبه القارة الهندية : ص/٢٤٠ .

أنجبت شبه القارة الهندية عدداً من شعراء العربية ولكن لم يبلغ أحد منهم إلى ما كان عليه الشيخ اللاهوري والأمير خسرو ، حتى برز القاضي عبد المقتدر الشريحي الكندي على ساحة الهند كشاعر عربي مقتدر له شأن مرموق في مجال الشعر والأدب ، وكان القاضي من تلامذة الشيخ نصير الدين محمود وخليفته ، درس عليه الأدب الجاهلي بعمق ودقة ، ويكفى له افتخاراً بأن القاضي شهاب الدين الدولتآبادي (ت/٨٤٩هـ) ، إمام النحو في شبه القارة الهندية قد استفاد منه ، وقد قرض الشيخ عبد المقتدر قصائد عديلة باللغة العربية ، ومن أشهرها قصيدته اللامية في مدح النبي الكريم ﷺ وهي في معارضة "لامية العجم" للطغرائي (ت/٥١٥هـ) ، وهذه القصيدة أكبر شهادة بأن الأدب العربي كان أكثر تطوراً في عهد المملكة المعروفة بالسلطنة في الهند ، ويبدأ القاضي الشريحي لاميته هذه بالتشبيب على طريقة الشعراء المتقدمين ؛ فهو يقول :

يا سائق الظعن في الأسحار والأصيل
سلم على دار سلمى فابك وسل
عن الظباء التي من دأبها أبدا
صيد الأسود بحسن الدل و النجل
فدىً فؤادي أعرابية سكنت
بيتاً من القلب معموراً بلا حول
من نور وجنتها ، من حسن غرتها
من طيب غرتها ، من طرفها الشمل
كأنها ظبية ، لكن بينهما
فرقاً جلياً بعظم الساق والكفل (١٣)

بعد مطالعة هذه الأبيات يتبادر إلى الذهن أن الشريحي قد اتبع أساليب الشعراء الجاهليين من أمثال امرئ القيس وزهير ولبيد في إيراد كلمة سلمى وذكر الظبية والناقة وتصوير الصحراء والوقوف على دار الحبيبة للتسليم والبكاء على عبادة شعراء الجاهلية ، وهذه كلها تنم عن مدى تأثر الشاعر بشعراء العرب القدامى .

وفي ضمن هذه القصيدة الطويلة جاء القاضي بأبيات عديدة يذكر بها الناس بالموت والآخرة ، وينبههم على فناء الحياة ويحثهم على الاقتناع والعمل الجاد ، وكلها بأسلوب فصيح رائع جذّاب ، كما هو يقول:

يا طالب العزّ في العقبى بلا عمل
هل تنفعك فيها كثرة الأمل
يا من تطاول في البنيان معتمداً
على القصور و خفض العيش والطول
لأنت في غفلة و الموت في إثر
يعدو و في يده مستحكم الطول
اقنع من العيش بالأدنى و كن ملكا
إن القناعة كنز عنك لم يزل (١٤)

الشيخ أحمد بن محمد التهانيسري (ت/٨٢٠هـ) :

كان الشيخ التهانيسري عالماً جليلاً وشاعراً مجيداً ، وقرأ العلوم الدينية والآداب العربية على القاضي عبد المقتدر الشريحي ، وفي عهده سنة ٨٠١هـ هاجم تيمور لنغ مدينة دهلي ، واعتقل الشيخ ولكنه في حينه علم عن مكانته الروحية والعلمية والأدبية حرره بكل الحفاوة والتكريم ، وأراد أن يستصحبه إلى سمرقند فأبى الشيخ أن يغادر وطنه ، وله قصيدة عربية معروفة بالدالية في مدح نبينا الكريم ﷺ وقد حازت

(١٤) الثقافة الإسلامية في الهند - للعلامة عبد الحي الحسني : ص/٤٤ .

هذه القصيلة شهرة واسعة واقتفى الشيخ أحمد في هـذه القصيـدة أثـر أستاذه الكريم ، فيبدأ القصيدة بشعر النسيب والغزل ؛ إذ هو يقول :

أطار لي حنين الطـــائر الغرد
وهاج لوعة قلـبي التائه الكمد
و أذكرتني عهوداً بالحمى سلفت
حمامة صلحت من لا عج الكبد
باتت تؤرقني و القوم قد هجعوا
من بين مضطجع منهم و مستند

وبعد ذلك ينصرف عن ذكر حبيبته ليلى ويعود إلى مدح النـبي الرسول الكريم ﷺ ؛ فهو يقول :

خل الأحاديث عن ليلى و جارتهـا
و ارحل إلى السيد المختار مـن أدد
و ليس في الدين و الدنيا و آخرتي
سوى جنـــاب رسول الله معتمدي
يا أفضل الناس من ماض و مؤتنف
و أكـــرم الخلق من حر و من عبد
أفديك بالروح و القلب المشوق معاً
والنفس والمال والأهل والولد (١٥)

الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي (ت/١١٧٦هـ) :

وبعد الشيخ أحمد التهانيسري يأتي مؤرخو الأدب بذكـر الشـاه ولي الله الدهلوي الذي يعد في طليعة شعراء العربيـة في الهنـد ، وكـان الشيخ في الحقيقة عالماً وفيلسوفاً ، ومفسراً ومحدثاً ، ولكنه بجانب هـذه

(١٥) اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية – الباكستانية عبر القرون : ص/١٨٢-١٨٣ .

كلها كان شاعراً مطبوعاً مجيداً أيضاً ، فقرض قصائد عديدة رائعة باللغة العربية ، ويدل شعره على قدرته الفائقة على اللغة العربية وبراعته الكاملة في نظم القصائد والأبيات ، وله ديوان شعر أيضاً باللغة العربية باسم : "أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم" ، ويشتمل هذا الديوان على القصائد الغراء في مدح النبي الكريم ﷺ ، وتمتاز أشعاره بفصاحة اللفظ وجزالة الأسلوب وعذوبة البيان ، وبناء على هذا ذهب بعض النقاد إلى القول : "إنه يبدو من قراءة قصائده العربية كأنه لم ينشأ ولم يترعرع في الهند ، بل إنه نشأ وشبّ في مضارب قبيلة هوازن أو عاش فترة طويلة بمصاحبة نساء بني تميم" (١٦) ، فأبياته التالية أحسن دليل على هذا الرأي :

إذا كان قلب المرء في الأمر خائر
فأضيق من تسعين رحب السباسب

وتشغلني عني و عن كل راحتي
مصائب تقفو مثلما في المصائب

إذا ما أتتني أزمة مدلهمة
تحيط بنفسي من جميع جوانب

تطلبت هل من ناصر أو مساعد
ألوذ به من خوف سوء العواقب

فلست أرى إلا الحبيب محمداً
رسول إله الخلق جم المناقب (١٧)

وعلماً بأن أسرة الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي كان أسرة علم وأدب ، فقد كان والده الشيخ عبد الرحيم و ولداه الشيخ عبد العزيز والشيخ رفيع الدين أيضاً من شعراء اللغة العربية في الهند ولهم قصائد رائعة في مدح الرسول الكريم ﷺ .

(يتبع)

---

(١٧) المصدر السابق : ص٤٧ .
(١٨) المصدر السابق : ص٤٧ .